حين تتلاقى الثقافات يولد الجديد

آن الصافي: الثقافة السودانية انتصرت على ثلاثة عقود من الخراب

تنغمس الروايــة العربية حاليا في قضايا حاضرة وماضية لمُســاءلة القيــم الثقافية الغائبة والمهمّشــة في ظل تغيــرات كبرى طرأت على العالم. وفي روايــة "خبز الغجر"، للكاتبــة الســودانية آن الصافي تشــريح لعدد من هــذه القضايا الثقافيــة. "العــرب" كان لها هذا الحوار مع الروائية حول مشروعها المعــروف بـ"الكتابة للمســتقبل"، والدوافع التي دفعتها إليه.

حنان عقيل
كاتبة مصرية

تتنــاول رواية "خبز الغجر" للكاتبة آن الصافــي، والتــي صــدرت حديثــا عن دار "فضــاءات" للنشــر والتوزيع، مفهوم الاقتصاد الســلوكي وعلم نفس المجتمعات، وتتطرق إلى قيمة التعايش السلمي والتسامح والاحتفاء بالطبيعة والتنوع الثقافــي، وتتحدث عن قضايا الثقافات الأصلية، وعلاقتها بمجتمعات المهمّشــين والتطــرق إلــى مصيرهــا مــع التغيــرات التــي تحدث عمــدا أو سهوا.

وهناك عمل تشــريحي عبر التقنية المســتخدمة لهذه العوالم في التشــابك والتلاقــي والعبور نحــو إعادة تعريف مسمّى الهوية والانتماء والوطن، ودور الاقتصاد في تشكيل تركيبة المجتمعات.

خصوصية ثقافية

تلفــت آن الصافــي فــي حديثهــا لـ"العرب"، إلى أن كل عمل في مشــروع "الكتابــة للمســتقبل" لــه دور وعوالم تخصّه، وتســعى قدر المســتطاع نحو الابتكار بشــكل يخدم قضايــا كل عمل وفكرته بتلقائية.

وأصــدرت الكاتبة الســودانية من قبل، العديد من الأعمال الأدبيّة، أبرزها "فُلــك الغوايــة"، و"جميــل نادونــد"، و"قافية الروح".

وقدمــت مشــروعها إلــى المشــهد الثقافي بأفــكار وقناعات معيّنة، وترى أن أدوات العصــر الحالــي جديــدة تمامــا علــى البشــرية ولهــا تأثيرات جليّــة، مثلمــا توصــل إليــه العلــم والتقنيات الحديثة من ذكاء اصطناعي وتقنيات دقيقة وعلم البيانات وسهولة التنقل والقضايا التــي تتعلق بالبيئة، أي أن منظومــة الحيــاة لــم تعــد كما كانــت قبل عام أو عشــرة أعوام أو مئة عام.

> الكاتبة تشدد على أهمية القراءة في مواضيع متنوعة والشغف بعوالم الإبداع مع محاولة دراسة مجريات الأحداث وفهمها

كما أن الفئات العمرية التي تقل عن 25 عامــا هي النســبة الأكبر في خارطة سكان المنطقة العربية، كيف هو واقعها، وماذا ينتظــر منها، وهل وجدّت أجيالا ســبقتها مســتعدة لدعمهــا والوقوف معهــا لتحقيــق رؤاهــا، وكيــف يبدو مسارها في المستقبل؟

يبرز في كتابات الصافي الجمع بين الاهتمام بثقافة وتراث بلدها، وقضاياه المحليــة، وفي الآن ذاته مُخاطبة أطياف مختلفة من القراء.

وتقــول الصافي "لنفتــرض أن كل مجتمع على هذا الكوكب له خصوصيته مــن موروثات وأجواء المكان من طبيعة وبيئــة وأثر، ببســاطة فكل لــه ثقافته وقضاياه وحــين تتلاقى الثقافات تحت مسمّيات مثل التنوع أو التعدد ينشأ ما هو جديد".

وتوضــح "نتمنّى أن يكون كل تلاق بغرض التنــوع ولن يحــدث ذلك ما لَم تكــن هنــاك أخلاقيات وقيــم تعزز هذا التلاقي السامي، مثل التسامح والسلم، فالجميع مهمّ وله خصوصية، لكن سنّة الله البقاء للأكثر خيرا ونفعا وصلاحا لمسار الحياة".

وتشــدّد على أن هذا ليــس بالقول المثالــي، فلنا النظر إلى التاريخ القريب والبعيد، مهما طال الزمن سوف ينتصر الخير، وقد قامت أدوات عصرنا الحالي بعمل جبّار في التقريب بين البشــر في أصقاع الأرض وتبــادل المعلومة، وبعد وبــاء كورونــا لا ينفع الجــدل أن هذه مجــرد أفكار لا جــدوى منهــا، بل على العكس تماما فهذه الجائحة كشفت لكل مجتمــع أين هو وتحديــات الحياة في هذه الحقبة الزمانية.

وتكمن المتعة بالنســبة إلى الكاتبة الســودانية في تقديم النسيج السردي بشــكل يجد القارئ فيه أنــه متورط في النص، وهو عنصر رئيســي في العمل، مــع شــخوص وأحــداث تجتمع تحت مظلة واحدة، وكل شــخصية لها محور يخصهــا، وقضيــة تحملهــا، فجميــع الشخوص أبطال في هذا العمل، وهناك الحوار والمونولــوج والنقلات الزمانية والمكانية كمســرح يتسع للجميع ليقول كل فرد ويفعل ما يشاء.

وتؤكــد الصافي لـ"العرب" أن كلا له قاموسه وشخصيته الاعتبارية، ويحمل ثقافته ويعتز بها، من النص سيُفهم من الذي يســعى لإذابة المجتمعات الأصيلة وتشــتيتها المكاني بحيث تضمحل دون أن يشعر بها مع الوقت.

تحولات متسارعة

تؤمــن آن الصافي أن الوقت الراهن وقت النقد الثقافي، والمطلوب أن يتناول ما يُقــدّم عبــر الإبــداع، فالتغيرات في تفكير ومســار الفرد والمجتمع ومنحى الحضارة الإنسانية تتسارع بشكل غير مسبوق.

ومــن هنا يجــد الباحــث والدارس وصنــاع القرار مــا قد يشــرح ما نحن عليه وما يمكن أن يقدم الأفضل لإنسان اليوم والغد، فثمة ثغرات في ما ورث من الماضي تتسبّب في إشكاليات اليوم، فلم لا نأخذ بالموضوعيــة والعلم لنقف عند قضايانا بحياد.

وتشــير إلــى أن ثقافــة الشــعب الســوداني قوية لعراقتها وجمالياتها المميــزة، وتشــرّبت وتعتــز بهــا، وهــي لصيقــة جــدا بقضايــا الوطــن ومجريات الأحــداث، وهناك حنين دائم يجعلها تشــعر بالمسؤولية نحو وطنها وشعبها.

وعاشــت الصافــي جــل عمرها في مدينــة أبوظبــي، والتي تحمل ســمات المدينــة الحديثــة الحاويــة للثقافــات المتنوعــة (الكوزموبوليتان) مثل جميع مدن دولة الإمارات العربية المتحــدة، والتــي قدمت معطيــات ثقافية كبيرة للعالم.

وبحكم الدراســة والعمــل تنقلت الروائية الســودانية بــين عــدة دول، وتعرّفــت علــى ثقافــات المجتمعــات، ووجــدت فــي الكتابة مــا يعبّر عــن رؤاها ومشــاهداتها، وربما عــن أجيال تنتمــي إليها، وعايشت تطورات هذا العصر.

وعن التحديات التــي تواجهها في أثنــاء كتابة نص جديد ومقدار العفوية والتخطيط في ما تكتب، تقول "نشــرت قرابة العشرة نصوص تتضمن روايات، ومئــات الأوراق والمقــالات الفكريــة الثقافية، إلا أننــي أعتبر الكتابة هواية محبّبة إلى نفسي، فــلا يوجد ما يُملى عليّ، فقط أترك سجيتي محلقة في عوالم القراءة والمشاهدة لأعود لنسج تصورات ورؤى أكــون حريصــة دومــا على عدم التكرار".

وهذه الآلية بالنســبة إليها تشــبه التنقيــب فــي الــذات ومخــزون ما في عوالمهــا، علّها تحصل مع كل عمل مقدم على ما هــو إضافة حقيقية للمشــروع الــذي تعمــل عليــه، وتســعى نحــوه، وتتمكن مــن تجديد تواجدهــا في هذا الكون.

وتلفــت إلــى أهميــة القــراءة فــي مواضيــع متنوعــة والشــغف بعوالم الإبــداع مــع محاولــة دراســة وفهــم مجريات الأحداث من حولها والتشريح العلمي بموضوعيــة للقضايا، وكل ذلك يجعــل فكرة العمــل واضحــة أمامها، وعليهــا فقــط أن تبدأ بالكتابــة لتأتي بشــخوص العمل، وكل يؤدي دوره بما يشــبه الاســتقلال، وكل له شــخصيته وحضوره وثقافته التي تخصه.

ويتطلب الأمر الوقوف عند الجانب النفســي والتقرّب من كل ذات في العمل حتــى يكون نســجها مقنعا مــا أمكن، وبعــد الانتهاء من العمــل تتأمل الشــخوص فقــد يحمــل بعضها ملمحا من شخوص في الواقع، لكــن في المجمل تحترم الشخصية في العمل.

وتكشــف الصافــي أن العقــود الثلاثة الأخيرة غيّــرت الكثيــر فــي حيــاة الشــعب الســوداني من تدمير للبنيــة التحتيــة ومحاربــة الإبــداع بــكل أشــكاله، إلا أن الثقافــة أصيلة وعريقــة، ولذلك قاومت لأجل الاســتمرار، وبالرغم مــن كل الصعوبــات، إلا أن الكثيــر من الأقلام الســودانية قدمــت إبداعها بشــكل مواكب وتخطت الحــدود بروح مثابرة.

وثمــة أســماء يُحتفــى بهــا داخل وخارج الوطن، وتظل الأجيال الســابقة داعمة وبروح ســامية تشــجع وترعى المواهــب، وهــذا التلاحــم البنــاء عبر تبــادل الخبرات مــن ســمات المجتمع الســوداني، الــذي يعتــز بــه، وكل له موهبته وأدواته.

وتزخر المكتبة الســودانية بالتنوع والأعمــال المتوافقة مــع عطاء كل جيل، وعليــه يُنتظــر الكثير من الإبــداع في المشهد الثقافي خلال المرحلة المقبلة.

وختمــت الصافــي حوارهــا مــع "العــرب"، قائلــة "جميــع أعمالــي تتم تحــت مشــروعي، منهــا مــا هــو معد للنشــر، مثل الجــزء الثالث مــن كتاب 'الكتابة للمســتقبل'، ورواية للناشــئة أســميتها 'آكينــوش' وروايــة تفاعلية ســتكون في أجزاء، وهي مشــتركة مع الزميل عبدالواحد ستيتو، ونعدّ الجزء الأول للنشــر قريبــا تحت مســمى 'في حضرتهم'".

ثمة ثغرات في ما ورث من الماضي

رواية «طبيب أرياف».. تروي تاريخ مصر من عمق الصعيد

القاهــرة – تحفــل المدونة الروائية المصرية بالكثير من الأعمال التي تدور أحداثهــا فــي الريف، وغالبــا ما تكون قائمــة على إبــراز التقابل بيــن عالمي الريف والمدينة، إما من خلال بطل قادم من المدينة إلى الريف، أو العكس.

وإن كانت تشــوب بعضهــا النظرة النمطيــة لــكل مــن عالمــي المدينــة والريــف، فإن بعضها الآخــر تمكّن من ربط العالمين بدقــة مقدّما رؤية بزوايا مختلفــة على غــرار الكاتــب المصري محمــد المنســي قنديــل فــي روايتــه الجديدة.

وبعد أن جاوز الســبعين من العمر يستدعي قنديل مرحلة مبكرة من حياته، ويمزجهــا بالكثيــر من الخيــال ليقدم روايتــه الجديدة "طبيــب أرياف" التي تــدور أحداثهــا فــي إحدى قــرى صعيــد مصــر نهاية حقبة الســبعينات ومطلع الثمانينــات مــن القــرن الماضي.

وقنديل الــذي تخرج في كليــة الطب عام 1975 عمل لفتــرة قصيرة في ريــف محافظــة المنيا قبل أن يتفــرّغ للكتابة ويحصل علــى جائزة الدولــة التشــجيعية فــي الآداب عــام 1988، ويُصدر عددا من الروايــات والمجموعات القصصية الناجحة.

وتتحــدث الروايــة عــن طبيــب شــاب يتعرض للاعتقــال عقب تخرجه في نهايــة حقبة الســبعينات بســبب نشــاطه السياســي، حيث يفقد نتيجة لذلــك حبيبتــه التي تتعــرض لضغوط ومضايقات أمنية تضطرها إلى الزواج هربا من مداهمات الشــرطة المستمرة لمنــزل عائلتها واســتجوابها المتكرر بشأن خطيبها السابق.

وبعد الإفراج عنــه يحصل الطبيب على فرصة جديــدة بتكليفه بالعمل في وحدة صحية نائية في الصعيد، يذهب إليهــا متأففا ويعتبرهــا منفى مؤقتا لا مفــر منه، لكن ما إن يســتلم عمله هناك ويظــن أنه بصدد طــي صفحة الماضي حتى يتعقّد عالمه من جديد.

يقــع الطبيب فــي غــرام الممرضة فــرح. ورغم علمه لاحقــا بأنها متزوجة يقــرر الاثنان الاســتمرار فــي العلاقة وإن اختلفت نوايــا وأهداف كل منهما، فهي تبحث عن بذرة تزرعها في رحمها لإنجــاب طفل بعــد أن فقــدت الأمل في زوجهــا، بينما هــو يبحث عن شــريك حياة جديد يستبدل به حبيبته السابقة ويؤسس أسرة وبيتا.

علاقــة أخــرى متشــابكة تمتد بين الطبيب ومأمور الشــرطة الــذي يورّط الطبيــب الشــاب في لعبــة الانتخابات بعــد اغتيال رئيــس البــلاد في عرض عســكري وإجراء اســتفتاء شعبي على المرشــح الوحيــد لخلافتــه، فيتحول الشــاب المناضــل ســابقا إلــى ضلع رئيســي فــي عمليــة تزويــر واســعة لأصوات الفلاحين.

شــخصية جديــدة تظهر فــي عالم الطبيــب الشــاب هــي الجازيــة "ملكة الغجر" التي تــزور مع جماعتها القرية ضمن جولاتها المستمرة بالريف.

تجذبه الجازيــة في البداية لعالمها الســحري المليء بالغمــوض والإثارة، وتكاد تورطه في علاقة جنســية عابرة. لكــن القدر يقف إلى جانبــه ليمنعه من ذلك، ويدرك ســريعا مدى بعد المســافة بينهمــا وانتمــاء كل منهما إلــى عالم مختلــف إلــى أن تجمعها الأقــدار معا مرة ثانية فــي رحلة محفوفة بالمخاطر داخل الصحراء، فيتحولان إلى صديقين متّحديــن ضــد قهر الســلطة وســطوة المجتمع.

يحــاول الطبيب، الــذي يتأخر ذكر اســمه إلى قرب نهايــة الرواية، الفكاك من عالم القرية المتشــابك واستخلاص الممرضة فرح مع جنينها لنفســه. لكن مســعاه يبوء بالفشــل مثلما فشلت كل محاولاته لانتشال الفلاحين من المرض والأوبئة المستوطنة.

الرواية، الصادرة عن دار الشــروق في 281 صفحــة من القطع المتوســط، تســتدعي للوهلــة الأولى مــن الذاكرة العشــرات مــن الأعمال الســابقة بداية مــن "يوميــات نائب في الأريــاف" لتوفيق الحكيم في 1937 وصولا إلى "بيت القبطية" لأشرف العشماوي فــي 2019، والتــي تناولــت فكــرة الغريــب الــذي يصل من العاصمــة إلى قرية نائية دون إرادته ســواء كان طبيبا أو قاضيــا أو موظفــا عموميا ونظرته لذلك المجتمع المعزول وتفاعله معــه. لكن ثمة ما يميز "طبيب أريــاف" ويضعها خارج الإطار النمطي لتلك الأعمال.

نموذج البطل الــذي يقدمه المؤلف في هــذه الرواية نمــوذج مختلف، فهو شــاب ينتمــي إلى جيل اســتثنائي في تاريــخ مصــر عاصــر نكســة 1967 ثم حــرب 1973 وبعدهما اغتيــال الرئيس محمد أنور الســادات وانتقال السلطة إلى خلفه محمد حســني مبــارك. وهنا اســتطاع المؤلــف بسلاســة وعمــق تســليط الضوء على انعكاسات كل هذه الأحداث على نفسية وأفكار وسلوك ذلك الجيل.

إبــراز أوضــاع الريــف المصــري في نهايــة حقبــة الســبعينات وبداية حقبــة الثمانينــات يســتحق أيضــا الالتفــات إليه في بنــاء الرواية، فبينما هبّت رياح التغيير سريعا على المدينة بزحامهــا الصاخــب وإيقاعها اللاهث بقي الريف مهملا بلا كهرباء أو وسائل نقل آدميــة أو دواء وظل الفقر والجهل ينخــران في عظامــه ويجهضان أحلام أبنائه.

> المؤلف استطاع بسلاسة وعمق تسليط الضوء على انعكاسات الأحداث التاريخية على نفسية جيل بأكمله وأفكاره وسلوكه

ومــن بيــن ثنايــا الخط الرئيســي للرواية يتمكــن المؤلف من طرح بعض القضايــا التــي أرّقــت القريــة قديمــا بوصفها نموذجا مصغرا للعالم الأشمل الأعم، واســتمر بعضها واستفحل مثل التعصــب الدينــي وزواج القاصــرات والهجرة غير الشرعية.

وبامتــداد الروايــة تطغــى موهبة المؤلف في الســرد المشــوق المتدفق ورســم تفاصيــل الشــخصيات بدقــة والتعبير عن مشــاعرها بصدق، فينجح في جــذب القــارئ لمتابعــة مصير كل شخصية حتى النهاية سواء اتفق معها أو اختلف.

مناضل سابق يبحث عن الحب (لوحة للفنانة إنجي أفلاطون)